الدم ... والتراب

سميح القاسم

أنت من التراب وإلى التراب تعود! منذ مئات السنين والإنسان يردّد هذه الكلمات الرصينة المفعمة بالحكمة، في إطار من المفهوم الديني الصوفي.. أمّا بالنسبة للفلاح الملتحم بتراب أرضه، فإنّ هذه العبارة تنشحن بمعنى آخر.. معنى تلتقي فيه الرّوح بالمادة في وحدة إنسانية رائعة.

وحين يتعرّض "التراب" لخطر ما فإنّ الفلاح يرزح تحت إحساس باهظ بأنّ اتصاله بالكرة الأرضيّة موشك على الانقطاع.. إنّ وطن الفلاح هو قطعة الأرض التي يجبلها بعرقه ودموعه بانتظار ثمرة الألم والفرح.. وفي سبيل هذه الثمرة – حقّه الإنساني المشروع – يصبح الفلاح على استعداد تامّ للتصدّي بجسده وعقله ودمه.. آنذاك تتضح أوجه الشبه الشديدة بين التراب وبين الدم.

لقد عاش الإنسان العربي الفلسطيني تجربة التراب والدم إلى أقصى حدودها.. كان اتصاله بأرضه حميمًا منذ فجر التاريخ.. ومن التوراة حتى آخر مصدر تاريخيّ معاصر نجد الدليل على العلاقة المتينة التي ربطت بيننا وبين ترابنا الوطني.

قبل ميلاد السيد المسيح بمائة سنة أسّس العرب الأزديون دولتهم في بلادنا، وإنّه لما يحمل دلالة هامة أنّ أوّل حديقة صحراوية في النقب عام 1978 لم ينجح الإسرائيليون بخلقها إلا على طريقة أجدادنا الكنعانيين، باعتراف الصّحافة الإسرائيلية نفسها..

هكذا، فإنّ جذورنا ممتدّة في تراب هذا الوطن من اليوم إلى فجر التّاريخ..

هذه الحقيقة تفسر وتبرر تشبث المواطنين العرب في إسرائيل بما تبقّى لهم من تراب وطنيّ، إلى درجة الاستشهاد، كما حدث في يوم الأرض الخالد وقبله وبعده..

لم يكن يوم الأرض 30 آذار 1976 "يوم شَعَب"، كما يدّعي البعض.. كان ذلك يوم كفاح عادل خاضته الجماهير العربيّة في إسرائيل تعبيرًا عن نقمتها النبيلة على السياسة التي استهدفت اقتلاعنا من جذورنا

القومية، وتأكيدًا على التصاقنا الأبديّ بترابنا الشرعيّ الموروث أبًا عن جدّ.
لقد تبنّى حكّام إسـرائيل المتعاقبون النظرية التوسّـعية، ومارسـوها بنشـاطٍ محاولين التستّر وراء شعاراتٍ وتعابير جميلة وعلمية في مظهرها، لكنها عنصرية في مخبرها. وليست ألفاظ "التطوير" و "تركيز الأراضي" و "توزيع السـكّان" سـوى أقنعة لسياسـة مصادرة أراضي الفلاحيـن العرب ونقلها باتجاه واحـد نحو الملكيّة الإسـرائيلية، لا من أجل تطوير مصالح جميع سـكان البلاد، بل لتنفيذ سياسـة "التهويد" المعلنة بوضوح في الفقرة التالية من مشروع "تهويد الجليل".
"القضية الخاصة بالجليل هي قلّة السـكان اليهود بالنسـبة لغير اليهود الذين يؤلّفون 70 بالمائة من مجموع السكّان".
على هذه الخلفية وبعد ثلاثين سنة من مصادرة الأراضي كانت أحداث يوم الأرض. ففي 30 آذار 1976 أرادت الجماهير العربية الدفاع عن أرضها بممارسة حقّ شرعيّ من حقوقها! حقّ الإضراب. غير أنّ السلطات واجهت ممارستنا لهذا الحقّ المدنيّ بإجراءات عسكرية، كلفتنا ستّة شهداء أبرار وكثيرًا من الدم وكثيرًا من الألم.
القضايا القومية تستحث النضال القومي. وبقدر ما تتّضح القضية القومية، وبقدر ما يعمق النضال القومي، بقدر ما تتّضح وتتعمّق، أيضًا، مبرّرات وممكنات النضال الأممي.
من أوجه الطابع الأممي لنضالنا، أنّ يوم الأرض أثار موجة من تضامن القوى والعناصر اليهودية السليمة في إسرائيل، عبّرت عنه بأشكال وأساليب متفاوتة.
إنّ إقامة النّصب التذكاريّ لشهداء يوم الأرض رمز عميق لهذا التضامن.. ذلك النصب القائم على تلّة صغيرة في مدخل سـخنين يبدو مخاطبًا البشر والسّـماء معًا.. إنّه يعظ البشر بجلال الكفاح ويصرخ في وجه السّماء "العدالة!".
لقـد التقت في تصميم هـذا النصب وتنفيذه موهبتان تقدّميّتان بارزتان: موهبـة الفنّان العربي عبد عابدي وموهبة الفنّان الإسرائيليّ غرشون كنيسبل. حقّق الفنّانان تساميًا نبيلاً فوق مشاعر التعصّب القوميّ وخرج عملهما المشترك عملاً منسجمًا متكاملاً بشكل يخلق الانطباع بأنّه من صنع فنّان واحد.
إنّ حتميـة التاريـخ كفيلة بتصفية أسـباب الظّلـم القومي والإنسـاني.. وتعاقب الزمن كفيـل بإطفاء نيران الجراح.. ولا يبقى سوى العبرة ولا يدوم سوى المثل.. والإبداعات الفنية الإنسانية هي ذاكرة التاريخ.
لقد ذهب" اليونكرز" وانتصرت "غيرنيكا".. ولا ريب في أنّ البشرية ستذكر بابلو بيكاسو بأعمق مشاعر الحبّ والاحترام، وإذا ذكرت الجنرالزمو فرانكو، فلن تذكره بغير الاحتقار الذي يستحقّه..
ونحـن لا نعيـش على كوكب آخر.. وليس تاريخنا منفصمًا عن تاريخ البشـرية التي تشـكّل جـزءًا مثيرًا من أجزائِها.
وسـتذهب العنصرية والكراهية.. سيذهب الظلم القومي.. سـتذهب المذابح.. وسينتصر الإنسان، سينتصر الحبّ..
وسيبقى الإنسان والتراب والعبرة!